شعر ملك غرناطة يوسف الثالث

(دراسة موضوعية وفنية)

الدكتور مخيمر صالح مخيمر
جامعة اليرموك - الأردن -

لمحة تاريخية:

بعد زوال الموحدين من الأندلس، وسقوط قرطبة في يد الإفرنج سنة (633 هـ) لم يبق للمسلمين غير غرناطة، تولاها ابن الأحمر، وقبيلة (بنو الأحمر)قبيلة عربية عميدها محمد بن يوسف النصر، المعروف بابن الأحمر، وقد استطاعت دولة بني الأحمر أن تقف في وجه التوسع الافرنجي مدة طالت نحو قرنين ونصف (1).

عرفت غرناطة في حكم بني الأحمر، أزهى عصورها، فيها شيدت قصور الحمراء التي لا تزال ماثلة حتى اليوم، وامتاز عصرهم بتعزيز الآداب، فنبغ في دولتهم جملة من الشعراء والكتاب وعرف جماعة من سلاطينهم بالشعر والنثر.

وكان من بين هؤلاء: يوسف الثالث الملقب بالناصر لدين الله، الذي ولد في منتصف ليلة الجمعة السابع والعشرين لصفر من عام ثمانية وسبعين وسبعمائة (2) وذلك في عهد جده الغني بالله، وهو عهد بلغت فيه دولة بني الأحمر ذروة مجدها، وقمة عزها، وتولى ملك غرناطة من سنة 810 - 820 بعد أحداث مثيرة سنعرض لها في مقام الحديث عن شعره.

ديوان يوسف الثالث محقق ،حققه وقدمه العالم ،الجليل المرحوم عبدالله كنون، وبذلك أغنى أو أثرى المكتبة العربية بشمعة تسهم في تبديد الضبابية التي تلف تاريخ المسلمين في الأندلس في هذه الحقبة المتأخرة.

أما عن الدراسات السابقة لهذا الديوان، فلا أحسب أن هناك دراسة متخصصة لفنون الشعر في هذا الديوان دراسة موضوعية وفنية، غير أن الباحث لا يعدم وجود ملحوظات عامة مفيدة عند د. شوقي صيف في كتابه (عصر الدول والإمارات) (3) وبعض الملامح العامة المفيدة، التي تطرق إليها

---

(1) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المستنصرين، محمدعبدالله عنان، القاهرة ،الطبعة الرابعة، ص 40، 1987م.

(2) مقدمة ديوان ابن فركون، تحقيق محمد بن شريفة، المغرب ،مطبوعات اكاديمية المملكة المغربية، 1987 م.

(3) عصر الدول والإمارات (الأندلس) ،شوقي صيف ،القاهرة ،دار المعارف ،ص 220

الأستاذ محمد بن شريفة، محقق ديوان ابن فركون (4) الشاعر المتخصص في مدح يوسف الثالث، فقد كان يعرض الأستاذ محمد، كثيرا من أخبار يوسف الثالث في معرض حديثه عن شعر ابن فركون.

أما مقدمة محقق الديوان (عبدالله كنون) فهي مقدمة جيدة في استقصاء طريقة الحصول على الديوان، والتحقق من نسبته لمؤلفه أما دراسة المحقق لفنون الشعر في الديوان فقد جاءت مختصرة، إضافة إلى افتقارها إلى الاستشهاد بالأمثلة الشعرية وقد رتب ثبتا للقصائد، وذلك وفق الترتيب الهجائي الذي جاء عليه الديوان، دون أن يكتب مطلع القصيدة أو عدد أبياتها وذلك كأن يقول (قافية الهمزة من ص كذا - ص كذا).وعلى هذا فقد جاءت هذه الدراسة في قسمين اثنين:الأول: الدراسة الموضوعية، وتشمل دراسة الفنون المختلفة في هذا الديوان مرتبة وفق نضوج التجربة الشعرية عند الشاعر.

1-شعر الرثاء

2-شعر العتاب

3-شعر الحنين إلى غرناطة

4-الشعر السياسي

5-شعر الفخر

6-شعر الغزل والنسيب

7- الموشحات

الثاني: الدراسة الفنية وتشمل الجوانب التالية:

1-مطلع القصيدة عند يوسف الثالث

2-شعر يوسف الثالث بين القصائد والمقطوعات

3-التأثير الفني واشتمل على عدة عناصر أهمها:

أ)المعارضة

ب)التضمين

ج)مصادر الصورة

د)الموسيقى

(4)ديوان ابن فركون ،تحقيق محمد بن شريفة ،مقدمة المحقق.

الدراسة الموضوعية:

الفنان قبل كل شيء، إنسان ذو شخصية متميزة، بجوهرها وحدودها وأبعادها وإمكاناتها، إنسان اختزن تجارب ذاتية، كونت شخصيته بفضل سعيه في هذا الوجود، بين بيئة المجتمع، وهو إذ يندفع إلي التعبير الفني، إنما يندفع بالفعل إلى التعبير عن نفسه، وما يخالجها من أشتات والتماعات الخواطر والمشاعر، فكل ما تثيره المشاهد والأحداث في محتوى شخصية الفنان من رؤى وصبابات وأحاسيس وآراء، وكل ما يتوتر به وجدانه في مواقف من مواقفه الحياتية وفي لحظة من لحظات سعيه كفرد اجتماعي... هو مادة التعبير الفني ومن هنا يمكننا أن نتعرف إلى أحداث هامة ومشاعر خاصة كان لها أثر في نفس هذا الشاعر الملك، سطرها فنا جميلا في صفحات ديوانه الذي وصفه في مقدمته النثرية بقوله (5):

«وصدرت عنا ناشئات في حجور العناية، وسافرات عن وجوه جاءت من الحسن آية بعد آية، بين مطولة في فنون تعددت، وبين مقطوعة رمت الشاكلة فأقصدت».

وقد رأيت أن أدرس أغراض الشعر في ديوانه وفقا لنضوج تجربته الشعرية

1)الرثـــــاء:

رثاء والـــده:

لما توفي الغني بالله سنة 793 هـ، خلفه ولي عهده يوسف الثاني والد شاعرنا، وكان هذا يومئذ في الخامسة عشرة من عمره تقريبا ،وقد رشحه والده السلطان لولاية عهده، نظرا لأنه أكبر أولاده، ولعلمه وأدبه وكفاءته، وغضب أخوه محمد ،وهبّ مع بعض أنصاره إلى الحمراء، ولكن لم تطل مدة يوسف الثاني في الحكم، إذ توفي في 16 ذي القعدة، عام 774 هـ، وأفلح ولده محمد بالاعتماد على

---

(5) مقدمة ديوان يوسف الثالث ،ص 2.

حزبه في الاستيلاء على الملك، وإبعاد أخيه إلي سجن (شلوبانية) حيث ظل معتقلا إلى سنة 810 (6)، وأثر كل ذلك في نفس يوسف الثالث أيما تأثير ،ومن الطريف أن هذا الحدث هو الذي فجر ملكته الشعرية، فكانت أولى قصائده قد قالها وهو في السجن، ولعل أبرز القصائد التي قالها في السجن كانت قصائد رثائه لوالده ومن ذلك قصيدته التي يقول فيها (7) معبرا عن المصيبة تلك، التي ضاعفت همه وفطرت قلبه مستذكرا علاقته الحميمة بأبيه، وحبه له.

خليلي أين الصبر منا ويوسف ❁ وأين أياديه الكريمة تصرف
وأين نيال بالسبيكة نمتها ❁ ولا منظم للدهر نحوي يطرف
علي ظلال من عناية يوسف ❁ ودوني حسام للخلاف مرهف
تباكرني تترى عوارفه ضحى ❁ وينتابني تسآله والتعرف
فلا همة للقلب فيها تهمم ❁ ولا كلفة للنفس فيها تكلف
وحاجات نفس لم أراقب مكانها ❁ فكان لها منه الرضا والتعطف
لَقلبي أولى أن يذوب تفطرا ❁ وعيني بقاني الدمع تهمي وتذرف
تبلد فكري عند فقدي يوسفا ❁ وخامر قلبي منه ما ليس يوصف
فلا زال ريحان وروح ورحمة ❁ بلحد ثوى فيه الشريف المشرف

رثاء ابـــــن زمرك:

ومن الحوادث التي هزت يوسف الثالث في سجنه وفاة «ابن زمرك» -يث كتب كتابا يوضح ظروف قتله، ومما جاء فيه: «وإن سأل سائل عن الخبر الذي ألمعنا بذكره وضمنا هذاالبيت فظيع أمره، فذلك عندما نسب صاحب الأمر، يقصد (أخاه السلطان محمد السابع) إليه ما راب، وتلّه وابنيه للجبين معفرين بالتراب، وصدمه في جنح الليل والمصحف بين يديه، يتوسل بآياته، ويتشفع بعظيم بركاته فأخذته السيوف، وتعاورته الحتوف، وأذهبه سليبا قتيلا، مصيرا

(6) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، مصر ،دار المعارف، 1955 م، الجزء الثالث ،ص 168.

وانظر الأندلس الذاهبة (دولة الموحدين ودولة بني الأحمر، وانهيار الأندلس الكبرى، صياء باشا تعريب عبدالرحمن ارشيدات، عمان، 1989 ص 22).

(7) الديوان ص 144 - 145.

بصراع منزله كثيبا مهيلا، وكنا على بعد من هذه الأزمة التي أورثت القلوب شجنا طويلا، وذكرتنا بعناية مولانا الجد الغني بالله بجانبه أعظم ذكرى، فأغرينا برثائه خلدا وفكرا» (8)، وقال في رثائه:

يا نائم الجفن أسعف دائم السهر ❁ يبكي دما لقتيل صارم الذكر
كم ذا الرقاد وهذا الدهر يفجعنا ❁ أما تفيق لهذا الحادث النكر
أودى الزمان بمن كنا نلوذ به ❁ في حالتيه معا في العسر واليسر
فلا تثق بجفون بان ناظرها ❁ ولا بملك فقيد السمع والبصر
واعجب من الدهر والأيام إذ طمست ❁ مطالع الزهر أو أخذت شذا الزهر
هل كان إلا حيا يحي العباد به ❁ هل كان إلا قذى في عين ذي عور
إن قال قولا ترى الأبصار خاشعة ❁ لما يحير من وحي ومن خبر
يا لهف نفسي لو قد كنت حاضره ❁ غداة جرعه أدهى من الصبر

ولعل اعتناء يوسف الثالث برثاء ابن زمرك، واهتمامه بجمع تراثه في كتابه (البقية والمدرك من شعر ابن زمرك) وعمله على إرضاء أولاده وإرغامه خصومه وأعداده على تأديبه ورثائه، يثير التساؤل حول داوفع ذلك، فهل هي الروابط والوفاء لعهد جده، أم هي الروابط الأدبية التي تجمع بينها؟ أم أن ذلك كا مجازاة على مواقف ابن زمرك السياسية تجاه يوسف الثالث، حيث كان يدعو ابن زمرك إلي تحريره من السجن (9) إن الاحتمالات السابقة كلها يمكن أن تكون صحيحة.

رثاء زوجه وولده:

وقد شاء القدر أن يحترق قلب هذا الملك ثانية بوفاة زوجه وولده البكر، الذي فرح بقدومه فرحا أنطق لسانه شعرا، فإذا به يقول شعرا يذوب فيه حسرة وألما، «فوفى لعهد السكن الكريم حق الوفاء» (10) وجاء «بمالا يحصيه القول من الإبداع» على حد قوله في رثاء ولده وزوجه.

---

(8) الديوان ص 75.
(9) أزهار الرياض ،المقري ص 55.
(10) الديوان ص 6.

ومما قاله في رثاء زوجه (11): متأسيا عنها بوجود ولده قبل وفاته بعدها.

أحقا أن رحلت فلا إيـــاب ❁ وأنا إن سألنا لا نجاب
أوحشتنا بها قضت الليالي ❁ أفرقتنا بها سبق الكتاب
لنا في الخطب صبر يوسفي ❁ على أن لا يرى منكم خطاب
ولو كان الرحيل إلى إيـاب ❁ لكان العود يرقب والإياب
ولكن سارت الأظعان سيرا ❁ حثيثا دونه الخيل العراب
أحلتها النوى مرمى بعيدا ❁ ومثوى زادها فيه التواب
وها أنا يوسفي قد دعـاني ❁ لذكراها الدعاء المستجـاب
لفرع خلفته أمير مـلـك ❁ رفيع من معـاليه الجـناب

ثم ما لبث أن فجعه القدر بفلذة كبده ،فقال (12):

إن للـــهم خميـــس ❁ ثار في يوم الخميس
ضحكت سن الردى ❁ عنه في يوم عـبوس
فلـكـم للدهـر من ❁ حالتي نعمى وبؤس
والحـمـــام كم لـه ❁ من معاطاة كـؤوس
قطـــعة من كبدي ❁ جعلت فوق الرؤوس
مدر اللحد مضى ❁ منه بالدر النـفيس

وقال راثيا زوجه وولده (13):

أعيذ الحمى من أن يخيب راجيا ❁ تـذكر من سلمى حبيبا مناجيا
لقد جد سيرا ركبـها حين ودعت ❁ وخـلـفـت القلب المقلب عـانيا
سما النظر المغري بـها متلمحا ❁ معالم من أطلالها ومعـالـــيا

(11)الديوان ص 6 - 7.
(12)الديوان ص 155.
(13)الديوان ص 165.

فأيأسني أن ضلت العين قصدها ✿ على ثقة أن لا ترى النجم هاديا
وأن المحيا وانبعاث صباحه ✿ تراءى لعيني خافت النور خافيا
فياليت ما بالصدر بالعين قدبدا ✿ ويا ليت ما في العين بالصدر ثاويا
وجدد لي الذكرى رضيع مكانه ✿ بإنسان عيني لا أقول فؤاديا

رثاء أخيه علي الملقب بمعز الدولة:

لا شك أن القسوة التي واجهها يوسف الثالث من أخيه أثرت في نفسه فصقلتها صقلا فكان رفيقا بأخوته الآخرين، وقد كان أحبهم إلى نفسه أخاه الأصغر علي الملقب بمعز الدولة الذي توفي أيضا فرثاه بقصائد جميلة معبرة نذكر منها قوله (14):

جهلوا المجد والسلف ✿ والجميل الذي سلف
وعلاء قد ارتقى ✿ مظهر العز والشرف
وعطايا جزيلة ✿ بين ماض ومؤتنف
كم أنادي نداء من ✿ شجوه فوق ما وصف
ياعلي بن يوسف ✿ غلب الوجد والأسف
ليس لي فيك حيلة أي ✿ غير ترديدي اللهف
عيش يلذ لي كل ✿ يوم أودى بك التلف
قلب لقد سلا ✿ كل دمع همى وجف
كنت ذخري وعدتي ✿ خلفا لي ممن سلف
كنت أنسي وراحتي ✿ ساعدا في الوغى وكف
كنت سمعي وناظري ✿ فمحت نورك السدف

---

(14)الديوان ص 167.

رثاء القادة: وقد حفظ يوسف الثالث ودقادته، ورعى العهد لرجال دولته بأشعار كثيرة، منها المرثية المخمسة في قائده وصهره الذي استشهد، فرثاه مشيرا إلى جهاده يقول (15):

أما عجب أن غربت أنجم السما ●● وكنا عهدناها تروق تـــوسما
فيا جيرة قد يمموا أجرع الحمى ●● سلوا الأفق الشرقي مما تجهما
ولم قطرت أجفان مقلته دما
قضوا فئة طوع الجهاد رئـــيسة ●● حوت أثرا مسموعة ومقيسة
فإن أصبحوا نهبا وعادوا فريسة ●● فما بذلوا إلا نفوسا نفـــيسة
ولم يقصدوا إلا الجناب المكرّما

ومما يلاحظ أن عناصر قصيدة الرثاء عند يوسف الثالث لا تخرج عن قصيدة الرثاء العربية القديمة الصادقة، والتي صدر فيها الشعراء عن طبع وسجية دون تكلف للمعاني، أو إدخال لبعض المعاني الفلسفية فيها، كما كان شائعا عند أصحاب مدرسة الصنعة في العصر العباسي من أمثال أبي تمام والمعري ومن تأثر بهم من الشعراء في العصور التالية ويمكن أن نلخص هذه العناصر فيما يأتي:

1-وصف أثر الحدث في نفس الشاعر، فالشاعر يتقبل الفاجعة للوهلة الأولى بمزيد من الألم والتفجع والإحساس بضبابية الحياة، فقلبه احترق بالنار التي لا تنطفيء، وعيونه تهمي وعقله ذاهل أمام استيعاب الحدث، يقول في رثاء والده (16).

لقلبي أولى أن يذوب تفطرطا ●● وعيني بقاني الدمع تهمي وتذرف
تبلد فكري عند فقدي يوسفا ●● وخامر قلبي منه ما ليس يوصف

ويقول في رثاءزوجه (17):

أحقا أن رحلت فلا إياب ●● وأنا إن سألنا لا نجاب

ويقول في رثاء ولده (18):

(15)الديوان ص 118 - 119.
(16)الديوان ص 144.
(17)الديوان ص 126.
(18)الديوان ص 119.

بقلبي لهيب ليس يخبو ضرامه ✿✿ بجفني دمع مستهل غـــمامه
وهيهات أين النوم من جفن هائم ✿✿ تنادى به ركب الحمى وخيامه؟

وقال في رثاء أخيه (19):

أي عيش يلذ ل ✿✿ يوم أودى بك التلف
كل قلب قد س ✿✿ كل دمع همى وجف

2-ذكر صفات الفقيد ومناقبه: فوالده صاحب أياد كريمة، وهو حسام الخلافة يقول (20):

خليلي أين الصبر منا ويوسف ✿✿ وأين أياديه الكريمة تصـرف
عـــلي ظلال من عناية يوسف ✿✿ ودوني حسام للخلافة مرهف

ويقول في قصيدة أخرى، وصافا إياه بإمام الصالحات، والأنيس الوحيد في الدنيا يقول (21):

إمـــام له في الصالحات تـــقدم ✿✿ وليس له في المعلمات تأخر
تولى فولى بعده الأنس وانقضى ✿✿ فلا أثر إلا الأسى والتفـــكر

وقد وصف أخاه بالدر الذي كان يصونه ويحافظ عليه، وأنه الشمس الذي كان يرى من خلالها الدنيا، ل هو السمع والنظر.

يقول (22):

يا علي بن يـوســـف ✿ غـــلب الوجـد الأسف
ليس لي منك حـــيلة ✿ غـــير ترديـدي اللهف
كنت ذخري وعـــدتي ✿ خـــلفا لي ممن سلف
كنت أنسي وراحـــتي ✿ ساعدا في الوغى وكف
كنت سمعي وناظـري ✿ فمحت نـــورك السدف
كـــنـت درا أصـــونـــه ✿ فتشظى عـنه الصدف
كنت غضا يـــروقني ✿ فتثنى ثـــم انـقصـف
كنت شمسي فنورها ✿ في ضحاها قد انكسف

---

(19)الديوان ص 167.
(20)الديوان ص 144.
(21)الديوان ص 67.
(22)الديوان ص 167.

كـنت بـدري تضيء لي ❁ غـالة الخطب فانخسف
أفـل الـنـور لا أرى ❁ بـعد الـدهر مـن خلف
كـنـت دنـيـاي ها أنا ❁ حـيث قـيل أبـو دلـف

3-عنصر التأسي والتعزي: مع أن يوسف الثالث أظهر في مرثياته تفجعا كبيرا، إلا أنه إنسان يؤمن بأن الموت مكتوب على الناس، فهو الكأس الذي لابد من شربه، وهو حكم الله الذي لا راد له، يقول في رثاء أخيه (23):

لـوجدة الـقلـب المـفجع مـوقـع ❁ ولكن إلى الحكم الإلهي ترجع
تـجـلت عـليه مـن خـلافـة مـلكـنا ❁ مواهب يهمي صوبهن ويـهمع
إلى أن توارى في الثرى بعد ما سرى ❁ وشهب الثـريا نـحـوه تـطلع
وصـاحبـه الـروح الأمـين لـوجهة ❁ يـؤمـنه فـيها الشفيع المشفع

ويقول في رثاء ولده (24):

إن للـهم خـميس ❁❁ ثـار في يـوم الخمـيس
ضحكت سن الردى ❁❁ عـنـه في يـوم عـبوس
والـحـمام كـم ❁❁ له مـن معاطـاة كؤوس

وهو يدرك أن الموت خير واعظ للإنسان، وهذا المعنى الذي قال فيه شعرا كي يرسم على قبر أخيه.يقول (25):

يا قـبر فيك تـذكر وعظات ❁❁ وإليك من أنظارنا اللحظات
هل أنت إلا عبرة لألي النهى ❁❁ تنهل في أرجائك العـبرات

4-أما العنصر الرابع فيتمثل بطلب الرحمة للفقيد، وهذه عادة عربية قديمة أخذت طابع السقيا في الجاهلية، وتعددت صورها في الإسلام، حيث أصبح الدعاء بالرحمة، والمغفرة، والجنة ،يقول في رثاء والده (26):

---

(23) الديوان ص 139.
(24) الديوان ص 155.
(25) الديوان ص 169.
(26) الديوان ص 144.

فلا زال ريحان وروح ورحمة ●● بلحد ثوى فيه الشريف المشرف

وقال في رثاء زوجه (27):

أحلتها النوى مرمى بعيدا ●● ومثوى زادها فيه الثواب

وقال في رثاء أخيه (28):

تقضي شقيق الروح لا زال لحده يعاهده صوب من الغيث ممرع

وقد فجر موقف الرثاء وجدان الشاعر المرهف المكلوم بنوائب الدهر التي تعاقبت عليه، مما لون شعره تلوينا يميل أحيانا إلى الضجر من الحياة كلها، ويميل أحيانا أخرى إلى معاهدة هؤلاء الأحباء الذين فقدهم على الوفاء لهم، يقول في مقطوعة يتذمر فيها من الحياة بعد رحيلهم (29):

خليا نفسي تموت أسا ●● حين لا يجدي متى وعسى

رمم فتت لها كبدي ●● إذ نشدت الأربع الدرسا

قوضت للموت أرحلهم ●● فصباحي بعدهن مسا

أما في الوفاء، فهو يعاهد أخاه على أن يبقى على الذكرى يهمي عليهم الدموع ولا ينساهم (30):

فما طارق طاريق إلا دمعي منهل ●● ومن كبدي الحرى زناد لقادح

كأن لم يمت ميت سواك ولم يكن ●● بكائي لترجيع الحمام الصوادح

سأبكيك ما فاضت دموعي وإن تفض ●● فحسبك تسهيدي وطول تنازحي

العتاب:

لقد شرب يوسف الثالث كأس العلقم من يد الزمان، ورأى من البلايا ما أنطقه الشعر وهو شاب يافع، وهل يجور الزمان بأكثر من أن يقذف به في غياهب السجن بدلا من أن يعتلي عرش الحكم؟! وأن هذا الغدر الذي كاد يؤدي بحياته من أخيه، بعد أن جمعتهما الأيام تحت جناحي أبوين كانا يبعثانفيهما المودة والعطف؟

---

(27)الديوان ص 6 - 7.

(28)الديوان ص 139.

(29)الديوان ص 166.

(30)الديوان ص 21.

ولذا فإن عناصر قصائد العتاب عند يوسف الثالث تتأرجح بين اللوم الهادىء اللين الذي يذكر فيه أخاه بأنهما من أسرة وحادة، وأنه يشكل السند له في أوقات الشدة وأنه ما زال يحتفظ له بشيء من الود والوفاء، وذلك كقوله في قصيدة له في العتاب بلغت ثمانين بيتا، وهي أطول قصيدة في ديوانه (31):

وقد يحفظ المرء الكريم إخاءه ❁ ويلقى عليه الموت والموت أحمر
ويصبر للأزمان صبر محافظ ❁ وفاء ليغني خدنه وهو معشر
فكيف بمن أصفاكم الود كله ❁ ويدفع عن أعراضكم حين تذكر
أبوكم أبوه دون ود مضاعف ❁ وعطف على مر الزمان يكرر
إذا ليلة بالسقم ضاقت جفونكم ❁ تبيت لها أكباده تتسعر
فهبكم تناسيتم ذمامي فما الذي ❁ دعاكم لذاك القول وهو مزور

وبين العتاب الذي يميل إلى العنف والتقريع، واصفا أخاه بالغدر وعدم الوفاء، كما في قوله (32):

مللتم حياتي وهو عين سفاهكم ❁❁ وبؤتم بإثم ليس فيه تستر
أأضمرتم غدرا لإظهاري الوفا ❁❁ وأظهرتم ضدا لما أنا مضمر

ويقول في قصيدة أخرى يبين فيها الفرق بين أخلاقه وأخلاق أخيه يقول (33):

وما غرني جهل ولكن أبوة ❁ دعيت لها حق المكانة والبر
أطارحه شجوي فيصبح لي شجا ❁ تعرض لي بين اللهاة أو النحر
وأوسعته حلما فظن بأنني ❁ رهبت وأن الحلم يصدر عن ذعر
يمن بما يسدي كأن لي حاجة ❁ إلى وده الممقوت أو خلقه الوعر
سيعلم من منا يسر ندامة ❁ إذا وضح الإصباح عن صادق الفجر
إذا لم يكن للمرء دين مع النهى ❁ فلست إلى ذاك الإخاء بمضطر

(31)الديوان ص 68.

(32)الديوان ص 69.

(33)الديوان ص 82.

والروايات التاريخية تشهد أن الله سبحانه وتعالى نجا يوسف الثالث من غدر أخيه، الذي أمر بقتله وهو في السجن، وقبل أن ينفذ الحكم، وذلك لأن وصول الأمر توافق ولعب مأمور السجن الشطرنج مع يوسف الثالث، فعرف يوسف بالأمر، وقال للمسؤول (34): «لنكمل لعبنا» فلم يدر ذاك كيف يلعب بعدما شاهد من رباطة جأش الزمير وسكينته، ويقال أنهما كانا ما يزالان في اللعب حينما أقبل فارس ينعي محمدا السادس ويبشر يوسف الثالث، بانتظار الناس حضوره ليعتلي عرش الملك.

الحنين إلى غرناطة:

ليوسف الثالث قصائد رقيقة في الحنين إلى غرناطة ومعالمها كنجد والسبيكة والمصلى، يقول في قصيدة يذكر فيها الحمراء مشيرا إلى وجوده في السجن (35):

فإن سدت الأبواب بيني وبينكم ستفضي منانا شمأل وقبول
فبالله يا ريح الجنوب تأملي أيلقى سلامي من حبيبي قبول
وإن جلت بالحمراء فاقري تحيتي ديارا خلت مني فهن طلول
وهبي على القصر الكبير عليلة فإن به أهل الحبيب حلول
وقولي: غريب أتلف الحب قلبه له أنة لا تنقضي وعويل

ويذكر في قصيدة أخرى السبيكة والمصلى يقول (36):

إلى تاج السبيكة فالمصلى تغاديك الصبابة والهيام
ففي أطباقها أطواد عز وفي آفاقها قمر قمام
فيا هل يرتوي منها صدائي ويا هل ينطفي هذا الأوام
وهل بعد القطيعة من وصال وهل يلقي لفرقتنا نظام

ولا يخفي أن يوسف الثالث كان يحمل حنينه إلى تلك الأماكن هموم سجنه وعزلته، ويعبر من خلال ذلك عن الأمل في العودة إلى تلك الربوع الحبيبة إلى نفسه.

---

(34)مقدمة ديوان ابن فركون ص 25.
(35)الديوان ص 192.
(36)الديوان ص 108.

الشعر السياسي:

لا شك أن دراسة الشعر السياسي في ديوان شاعر ملك، تتسم بلون خاص من الأهمية، ذلك لأن المأمول أن تكشف بصدق عن جوانب مهمة في تاريخ الدولة فإلى أي حد عكس شعر يوسف الثالث هموم شعبه المسلم، لا سيما أن غرناطة هي أخر معقل للمسلمين في الأندلس؟ وهل تشكلت صورة من خلال شعره لعلاقة دولته مع الدول المجاورة؟ وهل صور شعره شيئا من مقاومته للنصارى الذين كانوا ينتهزون الفرصة للانقضاض على المسلمين، وإسقاط آخر حصن من حصونهم، ولذلك يحسن بنا أن ندرس الشعر السياسي في ضوء المرتكزات السياسية الثلاثة الآتية:

أ- سياسية يوسف الثالث الداخلية.

ب- علاقته بالممالك النصرانية.

ج- علاقته مع المملكة المغربية.

1-سياسته الداخلية: شعر يوسف الثالث جوانب مهمة تكشف عن سياسته الداخلية يمكن تلخيصها في العناصر الآتية:

2-تنقلاته وأسفاره: يبدو أن يوسف الثالث كان يقظا حازما بعد توليه الحكم، إذ لم يركن إلى الدعة والراحة بل أكثر من تنقلاته في مملكته، وقد أخبرنا أنه نظم شعرا في قصر الحمة أول رجب من عام 816 هـ، ومن ذلك الشعر قصيدته التي مطلعها (37):

لاحظته كالظبي عند كناسه ✿ كسلان يعثر في فضول نعاسه

ونظم شعرا أيضا أثناء سفره إلى مدينة «المنكب»، أول شهر ربيع الأول من عام 819 هـ، منه قصيدته التي مطلعها (38):

تألق وضاح الأسرة باسم ✿ بليل كأن الزهر فيه لهاذم

وكان آخر سفر له هو سفره الثاني إلى مدينة المنكب، حيث كان على موعد مع الموت، في هذا البلد المجاور لشلوبانية التي قضى في سجنها زهرة شبابه،

---

(37)الديوان ص 153.

(38)الديوان ص 112.

فقد مرض فيها مرضا أودى بحياته، وذلك في يوم الأربعاء، التاسع والعشرين لرمضان عام عشرين وثمانمائة، بعد أن كان أمر بالتأهب لإقامة ما جرت به العادة من رسم العيد بالطعام وغيره (39).

2-حزمه مع القادة الذين كان يوليهم رسم خططه، ومراقبته لأعمالهم وقد قدم ذات مرة في عام 816هـ أحد هؤلاء القادة خطة من الخطط، فلم يصلح، فعزله، فتشفع له بعض العلماء، فعفا عنه الملك، وأقال عثرته إرضاء لهؤلاء العلماء وفي هذا يقول (40):

يا قوم لولا حلم ربي لم يكن ● في العفو مني يطمع الأقوام
لا سيما من فاه بالسفه الذي ● يدني كلوم القلب وهو كلام
شخص يهيم بكل واد مثلما ● لعبت لمجنون الحمى الأوهام
جاءت به أيام دهر قد قضى ● أن تعدل الآراء والحكام
قد كنت أعذر في السفاهة أهلها ● فاعجب لما تأتي به الأيام
ولأنتم يا رافعيها راية ● للعلم نعم الحزب والأعلام
صرفت إلي قلوبكم بمودة ● يرعى بها عهد لكم وذمام
نظرت إلي عيونكم في يقظة ● تصل الدعاء إذا العيون تنام
ولكم أبين ما قصدت بيانه ● وأقول حكمي شأنه الإحكام

إلى أن يقول:

فأقلت من عثراته من كان في ● مهواه قد زلت به الأقدام
وأقمت فرضا للجميل وسنة ● فإذا الوجود تحية وسلام

3-اهتمامه بالعلماء والأدباء، فقد اشتهر ذكر عدد من رجال العلم والأدباء في عصره، وذلك مثل ابن عاصم، صاحب التحفة، وأبي يحي بن عاصم تلميذ الشاطبي، وابن أبي حاكم المالقي، والإلبيري وصهره مفرج، وابن فركون وغيرهم، وقد كان يهتم بدعوة هؤلاء العلماء في المناسبات المختلفة كالعقيقة والإعذار والأعياد وغيرها، من ذلك ما جاء في ديوانه (41):

---

(39) ديوان ابن فركون محمد بن شريفة ، المغرب، ص 44، 1987م.
(40) الديوان ص 115.
(41) الديوان ص 148.

«ووجهنا ارتجالا إلى مجلس علماءحضرتنا في وليمة شرعية اتخذنا صنيعها بالرياض من قصورنا، على ما اقتضته عنايتنا بمجلسهم وتحفينا بالمزيد من تأنسهم.

يومنا يوم صباح مشرق ❁ فأجيبوا يا نجوم الأفق
يوسفيا قد أقام سنة ❁ نظمت أشرافها في نسق
في رياض حسنها متحد ❁ شائع في مغرب أومشرق
وأنا يوسفها من دولة ❁ أطلع الأنجم ملء الحدق
بين أبطال جهاد تمتطي ❁ للوغى غر الجياد السبق
ووفود الملك قد حفوا به ❁ درر العقد وتاج المفرق
بذلت يمناي ما شاء الندى ❁ وعلى الله جزاءالمنفق
هذه يوم احتفال المنتدى ❁ يا حماة الدين أسنى خلقي

4-النهضة العمرانية في عهده:

كان ليوسف الثالث ذوق حضاري رفيع تجلى به بنائه لحصن «المسلكين» وترميم قلعته، كما لاحظنا تنقلاته بين الحمة والمنكب وغيرهما، وحظي قصر الحمراء بعناية متميزة في عصره، وقد اقترح القصيدة الآتية لتكتب في إحدى قباب الحمراءيقول فيها (42):

يا دار شكرا للخليفة يوسف ❁ فهو الذي والى الجميل وأنعما
وحباك من "روض العريف" بنسمة ❁ تروي الجوانح من تباريح الظما
والقبة الغراء أصدق حجة ❁ حيث البيان أبان عنها مفهما

ونظم قصيدة أخرى أمر أن ترسم في مبنى من مباني الحمراء (43)

أنا للظمآن ري ولي القدر العلي
قد أقام حسن شكلي المقام اليوسفي
كلما شح غمام أنا بالورد حري

(42) الديوان ص 114.

(43) الديوان ص 163 - 165.

وتبدو بعض هوايات هذا الملك الفنان في نظمه شعرا يكتب على بعض الأشياء كالقوس والسيف وغيرهما، يقول (44): «ومن نظمنا مما يكتب في غمد سيف أمرنا أن يكون في غاية الاحتفال.

تقلدني نحو العدى ناصر الهدى ✿ وقد شخصت أبصارهم خوف حينها
جعلت غطـــــاءفوقه لأصـــونه ✿ كما صانت الأجفان إنســـان عينها

وكذلك قوله (45):

يوسف قلدني ✿ ربـــه أيـــدنـــي
فأنا فـي كفـه ✿ حتف من عاندني

علاقته مع الممالك النصرانية:

تولى يوسف الثالث عرش غرناطة في أعقاب هدنة عقدها أخوه محمد مع فرناندو عم ملك قشتالة (خوان الثاني) والوصي عليه والذي سيصبح ملكا، وكان يدعي بالإفنت (infante) وكان الناس يعقدون أملا كبيرا على ملكهم يوسف الثالث، كي يسترجع الحصون التي استولى عليها النصارى قبل الهدنة، كحصن الصخرة في ناحية رندة، ووجد هذاالأمل هوى في نفس يوسف الثالث الذي أبدى حسرة على ما آلت إليه أحوال الثغور من إهمال، وما أصبح عليه الناس من انحلال يقول (46):

لهف نفسي على الثغور تخلت ✿ فهي حفر من الكماة الحماة
وأنـــــاس على المعاصي جهارا ✿ قد أبـــاحوا حـــريمنا للعداة
لست للصيـــد من خلائق نصر ✿ يـــوم أهنا بسلم تلك العتاة

ويعلن للناس عزمه على الجهاد حتى وإن قبل بالهدنة التي عرضها الناصري عليه، إذ ربما يوافق عليها لغرض في نفسه كأن يكون خدعة حربية ،يقول (47):

---

(44)الديوان ص 130.

(45)الديوان ص 130.

(46)الديوان ص 5.

(47)الديوان ص 122.

أشـرت بمـا فيه لـقلبي سـلوة ❁ وفي ناصح مثلي يحق لك النصوح
وإن "إفـنت الـروم "ينقاد خاضعا ❁ كما انقاد من بعد الإباء جموح
سيرضى بحكم السيف منه مسوف ❁ ويسمح بالمال العريض شحيـح
وذلك سـهل في مشيـئة قـادر ❁ ينيل مـراما مرتجى ويتـيح
أما نحن -والله العليم بـقصدنا- ❁ نهجر في نصر الهدى ونـريح
بأفـئـدة لا يسـتـقـر قـرارها ❁ وهـل بمثار النـقع تهـدأ ريح
وهـل لي إلى غير الحروب تـطـلع ❁ وهـل لي إلى غير الجـهاد وطـموح

وقد وفى ما وعد به، بخوض معركة حرر فيها جيشه حصن الصخرة في ناحية رندة، وبذلك انتهت الهدنة، يقول في هذاالحدث العظيم (48):

وإن "إفنت الـروم "يجهد كلـما ❁ أراه المـقام اليوسـفي جهـاده
وكان ولي الشرك وافى مطـاوعا ❁ هوى ساقه نحو الهوان وقـاده
ففاز بها طـوعا وحـل بأفـقـها ❁ وألقى لديها ذخـره وعـتاده
وسار إلى أوطـانه وهو ظـافر ❁ لها لا إلى الأخرى يرجى معاده
يقود لها جيش الضلالة قاصـدا ❁ فحلأه المقـدار عنـها وذاده
إلي أن أتى مولى الخلائق يوسف ❁ فجد وأبـدى عـزمه وأعـاده

وما كان من النصارى إلا أن حاصروا بقيادة (الإفنت) فرناندو ثغر (انتقيره) وذلك عام 1410 م (49)، حتى سقط في أيديهم، ونظم يوسف الثالث على أثر ذلك شعرا كشف فيه عن فئة من المنافقين الذين لم يحسنوا الدفاع عن ذلك الثغر الإسلامي يقول (50):

ويا عـجبا من تـارك حـق ربـه ❁ تعرفت البغضاء من كنه حبه
فلم ينتشق روح الرضى من مهبه ❁ ومهما دعا داعي الهدى لم يلبه
فأنى له بالفجر والفوز بالأجر

(48)الديوان ص 122.
(49)نيل الابتهاج ،ص 285.
(50)الديوان ص 71.

وهل يرتضي أن الكفور مؤيد ❁ سوى ملحد، فضل الهداية يحجد
ملائكة السبع السموات تشهد ❁ على جامـــح في غـيه يـتردد
ويرتاح والإسلام في قبضة الكفر

ويذكر في ديوانه أيضا شعر يشير إلى مجابهة مع القشتالين في حصن (مشاقر)، وانتصاره عليهم ،يقول (51):

ما بين زرقة لحظه وحـــسامه ❁ يلتاح بدر الأفق عند تمامـــه
لما وثقنا بالنـبي المجـتـبي ❁ في نقضه النبوي أو إبرامه
لم ينتظم للكـفر عـد جنوده ❁ إلا أقر العين نثر نظامه
هذا وكم من ضارع متـوسل ❁ بجهاده وصلاته وصيـامه
يدعو بنا للحرب من شهدائه ❁ ولما أصاب الثغر من اهتمامه
والله جـل جلاله متـكـفـل ❁ بالنصر والمعهود من إنعامـه

وبعد ذلك انشغل يوسف الثالث بالصراع مع المغاربة على حدوده من الجهة الثانية، مما جعله يعقد هدنة بينه وبين النصارى.

علاقات يوسف الثالث بالمملكة المغربية:

بوفاة أبي سالم المريني، وعودة الغني بالله من منفاه في المغرب إلى الأندلس، بدأ فصل جديد في العلاقات الأندلسية المغربية، فقد تنكر هذا الملك النصري لبني مرين، واستغل ظروف عدم الاستقرار واستولى على حصن جبل طارق الذي كان مركز اهتمام بني مرين، وقد تابع يوسف الثالث نهج جده الغني بالله في سياسته مع المغرب، وفي علاقته مع حاكمها «أبي عثمان سعيد بن أحمد بن أبي سالم المريني» فكان يطمع في أن يكون له نفوذ في المغرب، ولكنه وجد حاكمها صلبا وفي سنة 813 هـ ثار أهل جبل طارق وأعلنوا تبعيتهم للمغرب، وفي السنة نفسها جهز يوسف الثالث السعيد المريني ووجهه في أسطول إلى المغرب ليطالب بالملك في محاولة لإسقاط «أبي سعيد عثمان» وقد توالت محاولات يوسف الثالث استرداد جبل طارق إلى حكمه ويبدو هذا الأمر واضحا في شعره الذي يذكر فيه فخره باسترجاع جبل طارق ،يقول (52):

---

(51) الديوان ص 125 - 126.

(52) الديوان ص 146.

وسائل بها "القشتور" (53) إذ عز مطلب ✿ فها هو من أسر السيوف عتيق
نهدنا إليه بعدما هوم الدجى ✿ ونادى فنجيناه وهو غريق
وإنا لنرجو من تناهي ضلالة ✿ عسى سكره يصحو بنا ويفيق

وقد حرض في شعره أيضا أولياءه من بني مرين على الثورة على أبي سعيد عثمان، وتأييد مرشحه (السعيد) ،يقول مخاطبا أولياءه من بني مرين وعرب بني حسين قائلا (54):

قوموا إلى نصر السعيد حماية ✿ فالدين إن لم تجمعوه يبدد
وتمكنوا في فاس من عثمانها ✿ واستبصروا بسنى الحقيقة واهتدوا
أوليس قد أعطى العداة بلادنا ✿ إعطاء من يرضي الكفور ويرفد

وهو يريد من وراء ذلك أن يجمع الشمل ثانية، ويوحد الدولتين لمقارعة النصارى: يقول (55) واصفا وحدة النصارى وعدم تفرقهم.

إن النصارى قد تجمع شملها ✿ فعسى ببأس سيوفكم تتبدد
وتروعهم منكم سيوف حماية ✿ يجلو دجاها يوسف ومحمد (56)
أخوان قد قاما بنصرة دينه ✿ فالدهر يبكي والثناء مخلد

وقد كان يأمل أن يأتي (السعيد) بأبي سعيد عثمان مقيدا إلى غرناطة ،يقول (57):

عن قريب يزورنا ✿ في قيود الأداهم

ولكن الأمور لم تسروفقا لرغبته، فقد حاول (السعيد) دون جدوى ،وانتهت المسألة بصلح بين (السعيد) وأبي سعيد عثمان اتفقا فيه على قسمة البلاد المغربية بينهما، وقد ترتب عن ذلك كما يبدو ذلك في شعر يوسف الثالث علاقة صلح بينه وبين أبي سعيد عثمان يقول (58):

---

(53)القشتور : اسم حصن من حصون جبل طارق .انظر الإحاطة ،لسان الدين بن الخطي ج2 ص 87.
(54)الديوان ص 50.
(55)الديوان ص 51 - 52.
(56)محمدهواسم السعيد.
(57)الديوان 117.
(58)الديوان ص 40.

هي بشرى دعت جميع العباد ✿ للتمـــادي على صـــريح الـوداد

وأنهاها مضمنا بيت المتنبي " حسم الصلح ما اشتهته الأعادي":

واستعـدنا حمـد الإله وقلنا ✿ حسم الصـلح ما اشـتهته الأعادي

ويعود فيمدح بني مرين ويمدح أبا سعيد عثمان،وهذا يدل على حنكة القائد السايسي المحنك، يقول (59):

هكذا الفخر يا أعز قـبيل ✿ محرز للسباق خصل الجياد

جد سلطانكم أفاد العوالي ✿ فظفـــرتم بذخره المستفاد

إذ نحيي أبا سعيد بأزكى ✿ ما تحيـــا به صدور النوادي

ثم أخذ يشير إلى أن هذا الصلح يسهم في الالتفات إلى العدو المشترك، يقول:

حجة السلم أكسبته عتوا ✿ وبلايا محيطة بالبلاد

ونحسب أنه وإن انتهى الصراع بين دولتين مسلمتين إلى مصالحة، فإن فترة العداء ستبقى شاهدا على أن الصراع بينهما كان لصالح العدو المشترك ،وهذا ما حصل فعلا، فقد خسرت المغرب «سبته»، وخسرت الأندلس ضياع حصون (انتقيرة) و(منتشاقر) وحصن (الصخرة) وغيرها.

الفخر:

لعل من أبرز السمات في ديوان يوسف الثالث سمة الفخر بل هي سمة عامة واضحة في معظم القصائد ،فهي تشكل المعادل الموضوعي للمدح ؛أما عن عناصرفخره الذي يوجهه للغير، فيمكن أن نلخصها فيما يأتي:

1-فخره بأصله ونسبه وذلك نحو قوله في مقطوعة أمر بكتابتها على قبة من قبب قصر الحمراء اليسرى (60):

يا يوسفي المنتمي ✿ يا سبط أنصار الرسول

فهو ينتمي إلى رهط الأنصار، إذ أن أسرته من سلالة سعد بن عبادة،

---

(59) الديوان ص 40.

(60) الديوان ص 104. وانظر، عصر الدول والإمارات (الأندلس) ،شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ص 219-220.

ويقول مفاخرا بأصله في قصيدة أخرى (61):

ألست سليل الصيد من آل حمير ❁ وخير ملوك الأرض قوما ولا فخر
لنا المنصب الأعلى على كل منصب ❁ لنا العزة القعساء والغرر الغر
لنا الهضبة الشماء سامية الذرى ❁ لنا الراية الحمراء يهفو بها النصر
مكارم أعيت كل من رام حصرها ❁ وهيهات ما للشهب في أفقها حصر

فهو يفتخر بأنه سليل أصحاب الحول والطول من حمير، إذ أصل الأنصار من اليمن، وأن لهم المنصب أو المقام الرفيع، والعزة ،والوطيدة، والأعمال العظيمة المشهورة، والهضبة الضاربة في السماء التي لا يمكن لأحد بلوغ ذراها السامقة، والراية الحمراء، رمز إمارتهم وانتصاراتهم الماحقة، وهي مكارم يعز حصرها، وهل يمكن أن تحصر أو تحصى الشهب والنجوم في السماء؟! ويقول في قصيدة أخرى (62):

أنا الناصر السامي إلى كل مرتقى ❁ بي الخطب يصحو جوه المتغيم
ولي في المعالي همة يوسفية ❁ تسامى بها فوق الكواكب معلم

ويقول في قصيدة أخرى (63):

وإني اليوسفي أبا وجدا ❁ ملوك لا يضام لهم جوار

وقد أمر أن يكتب على «سيف» البيتين التاليين (64):

أنا سيف للذي ❁ فاق في المجد البشر
يوسف بن يوسف ❁ وكفى لي مفتخر

2-فخره بمجموعة من الصفات المعنوية:

وافتخر يوسف الثالث بمجموعة من الصفات التي تعطينا صورة ناصعة له كالعزم والشجاعة، فهو فارس قوي لايهاب صروف الدهر، يقول (65):

أنا الذي تعرف الأيام عزمته ❁ إن هم لم يخش تفريطا ولا فرطا

(61) الديوان ص 62.
(62) الديوان ص 121.
(63) الديوان ص 73.
(64) الديوان ص 73.
(65) الديوان ص 182.

مصمما كشهاب الرجم متقدا ✿ طاوي الحشى مضمر الجنبين منخرطا
جربت دهري في حل ومرتحل ✿ فلم يرعني بصرف منه حين سطا

وهو صاحب همة عالية لا تدانيها همة يقول (66):

أنا الناصر السامي إلى كل مرتقى ✿ بي الخطب يصحو جوه المتغيم
ولي في المعالي همة يوسفية ✿ تسامى بها فوق الكواكب معلم

وهو إنسان صادق وفي، يستجار إلى ظله في حر الهاجرة، يقول (67):

أنا يوسف واليوسفي صفاته ✿ إذا عز نيل فالمواهب نيل
أنا يوسف والصدق يشهد أنني ✿ على الخلق ظلّ في الهجير ظليل

ويعلن يوسف الثالث أنه انتصر في ضحى أحد الأيام، على حَمَلة الصليب وهو يقتدي في جهاده لهم، بجهاد الرسول صلى الله علي وسلم للكفار، مصمما على استئصال بيعهم أو كنائسهم، مستعينا بعون الله في نصره، وسحقهم سحقا ذريعا ،يقول (68):

راق الزمان وجاءنا ميقاته ✿ بالضحوة الغراء من أيامه
يأتم في حرب الصليب وحزبه ✿ بشفيع كل موحد وإمامه
مستأصل بيع العداة مهتم ✿ ما صان فيها الكفر من أصنامه
والله جل جلاله متكفل ✿ بالنصر والمعهود من إنعامه

ويقول داعيا لدولته بالدوام، لأنها دولة مسلمة تنصر دينه (69):

وما الملك إلا ملك دولتي التي ✿ من الله أرجو أن يطول دوامها
صرفت إليه العزم أنصر دينه ✿ ولي نية فالصالحات اعتصامها
وربي كفيل بالذي أنا آمل ✿ وما بدأة إلا عليه تمامها
سينجز لي الوعد الجميل على العدا ✿ أوامر ملك قد تسنى مرامها

---

(66)الديوان ص 121.

(67)الديوان ص 105.

(68)الديوان ص 125.

الغزل والنسيب:

تختلط مشاعر الغزل عند يوسف الثالث بمشاعر اللوعة والألم وصدود المحبوب، فهو في بعض قصائده لا يخرج عن عناصر قصيدة الغزل المألوفة، وذلك من حيث ذكر امرأة بعينها صرح باسمها مرات معدودة وهي سلمى ابنة عمه، فيذكربعضا من صفاتها الحسية وذلك نحو (70):

لما وفت سلمى بحفظ عهودي ❁ يممت روض تهائمي ونجودي
هو ربع سلمى أسلمت قلبي له ❁ نظرات ألحاظ الظباء الغيد
وإذا هي ابتسمت يروقك مبسم ❁ يزري بعقد اللؤلؤ المنضود

وفي أغلب الأحيان يتخذ شعره في المرأة بعدا آخر، إذ يتحول إلى نسيب رقيق يعكس نفسية تعاني معاناة كبيرة من الاشتياق، وهذا ليس غريبا عن شاعر مثل يوسف الثالث، إذ أن مرارة العشق ومكابداته تعترض الشعراء والفنانين العاديين، فكيف عندما يكون العاشق ملك في قومه؟ فهو بذلك في تجربته يقف أمام رقيبين.

أولهما: الرقيب الأخلاقي الذي دعاه لأن يتعفف في شعره.

وثانيهما: الرقيب الخارجي من مجتمعه وشعبه الذي ربما كان سببا في أن ينحو بغزله منحى التجنب والصدود رغم اللوعة.

وكثيرا ما كان يقدم أشعاره في النسيب بقوله، ومما نظمناه على غير حقيقة (71) مثل قوله (72):

يا من يقاطعني بفرط صدوده وأقول لا شلت يمين القاطع
غرست جفوني فوق خدك روضة فظللت أسقيها بفيض مدامعي
لولا العذار وما حوت قسماته ما راقني إشراق بدر طالع

وأحيانا كان يهرب في لقائه المباشر إلى عالم الطيف يقول (73):

---

(70)الديوان ص 36 ،وانظر القصائد الغزلية في الصفحات 152،153،156،157،144،155،190.

(71)انظر الديوان ص 97،135.

(72)الديوان ص 140.

(73)الديوان ص 140.

أين المنام وطيفه لي هاجر ۞ كم بت أرقبه بطرف خاضع

ويقول في استجداء عطف المحبوبة (74):

تقول سبيل الهجر سهل فما له ۞ ينوء بصدر دائم الخفقان
تنام جفوني عن سهاد جفونه ۞ وينعم بالي إذ يقول بلاني
ولم يدنهم مني خضوع وقربة ۞ فقلت كفاني من هواك كفاني
ولم يرع ودي أو معاني نسبتي ۞ ولكن تمادى هاجري وجفاني

ويقول (75):

وأهمل دمعي كالعقيق مسلسلا ۞ وإلا كمثل العقد وهو نضيد
فيا راحة القلب المعنى بحبه ۞ أسرك أني بالغرام شهيد
عسى الله بالحمراء يجمع شملنا ۞ ليبذل فيها مطرف وتليد

وهذا قريب من أشعار جميل بثينة شكلا ومضمونا.

الموشحات:

من المعروف أن الموشحات فن أندلسي نشأ في أواخر القرن الثالث الهجري ويعدمظهرا من مظاهر التجديد في الشعر العربي، وقد جاءت استجابة لحاجة فنية تتعلق بولوع الأندلسيين بالموسيقى وكلفهم بالغناء، وحاجة اجتماعية تتلخص في امتزاج المجتمع الأندلسي بعناصر اجتماعية مختلفة.

بيد أننا لا نجد الموشحة فنا بارزا في ديوان يوسف الثالث ،فموشحاته لا تتعدى أربع موشحات ثلاث منها في النسيب ،مطلع الأولى (76):

بعيشكما دعا ذكر العشية ۞ وحثا في ربوعهم المطية
وإن لم تنزلا تلك الثنية ۞ قفا نفسا على نفس شجية
يعيد حياتها رجع التحية

ومطلع الثاني (77):

---

(74)الديوان ص 128.

(75)الديوان ص 34.

(76)الديوان ص 162.

(77)الديوان ص 184.

يا من رمى قلبي عن سهم لحظ مصيب
صل مدنفا ذا مقلة تهمي دمعا سكيبا
من منصفي مـــن شادن غـر
مهـفـهف كالغصـن النضـر
قـــدلج في بعدي وفي هجري

وواحدة في الرثاء مطلعها (78):

أما عجب أن غربت أنجم السما ❁ وكناعهدناها تروق تبسما
فياجيرة قد يمموا أجرع الحمى ❁ سلوا الأفق الشرقي مما تجهما
ولم قطرت أجفان مقلته دما

وهي لا تخرج في بنائها الفني عن ذلك الطراز الأندلسي الشائع، وهي تتسم باستعمال كثير من المحسنات البديعية لا سيما الجناس بأنواعه، والطباق وذلك كما يظهر في قوله (79):

ألا يا مكنسا بظباء أنس ❁ حويت من المحاسن كل جنس
ويا أفقا لبهجة كل شمس ❁ ويا مغني السرور وكل أنس

الدراسة الفنية:

التجربة الأدبية منبعها النفس.... وباعثها الانفعال الصادق فهي استقبال واع للأحداث، وهي في أرقى تصور لها تتعامل مع أثر الأحداث ومداها، وتنأى عن الرصد المباشر لها، وهي تجربة فنية لما يمور في أعماق النفس من أشواق نحو إعادة تشكيل الواقع، واستشراف آفاق المستقبل ،فكيف استطاع يوسف الثالث إقامة عمارته الفنية في شعره؟؟

1-مطلع القصيدة: لعل أول الملاحظ على ديوان يوسف الثالث أن قصائده لا تبدأ بمقدمات تقليدية، كالمقدمة الطللية مثلا أو الخمرية، وإنما هو يبدأ بث مشاعره بأدوات ذوات صلة وثيقة بغرضه ،وذلك نحو قوله في قصيدة، في رثاء زوجه:

(78)الديوان ص 118.

(79)الديوان ص 162.

أحقا أن رحلت فـــلا إياب ✿ وأنا إن ســألـــنا لا نـــجاب

ويبدأ قصيدة في الغزل:

لاحظته كالظبي عند كناسه ✿ كسلان يعثر في فضول نعاسه

ويبدأ بالنداء بقصيدة في النسيب:

أيا غافلا عني ولست بغافل ✿ ويا قاطعا حبلي بوصل عواذلي

وقد اشتملت بعض القصائد على مقدمات وذلك نحو قصيدته التي قالها في العتاب، ومطلعها:

لعل خيال العامرية يخطر ✿ بأجفان عان قد براه التستر

ولعل مرد هذه الظاهرة إلى سببين:

أ-إن عدم استهلال القصائد لمقدمات طللية مثلا يعد من مظاهر التجديد التي تمثلها شعراء العصر العباسي، ولا شك أن ثقافة يوسف الثالث الشعرية، ثقافة عالية، كانت تؤهله الاطلاع على تلك الأنماط من التجديد.

ب-يوسف الثالث شاعر مطبوع، ترك نفسه على سجيتها في قول الشعر فالشعر عنده فيض لما تجيش به نفسه في المواقف المختلفة من فخر ورثاء وغزل ونسيب.... إلخ، ثم إن مقام حاله كملك لا يلزمه بكثير من التهيؤ والأناة عند التعبير، ولا أدل على ذلك من كثرة قوله: «وقد ارتجلنا» قبل أن يبدأ في كثير من القصائد.

2-شعره بين القصائد والمقطوعات:

قصائد يوسف الثالث متفاوتة في الطول، أطولها وصل إلى ثمانين بيتا وهي تلك التي عرضنا بعضا منها في عتاب أخيه والتي مطلعها (80):

لعل خيال العامرية يخطر ✿ بأجفان عان قد براه التستر

وأقصرها كان مقطوعات لا تتجاوز البيتين أو الثلاثة، من ذلك ،كقوله (81):

---

(80)الديوان ص 65.

(81)الديوان ص 123.

الطول منك قصـــير ۞ والمطل فيك كـــثير
يسير أمري كـــــثير ۞ وليس منك يســـير
جدعت أنف رجـــائي ۞ كـأن قـدري قصـير

ولعل مرد هذه الظاهرة إلى الأسباب التالية:

1-أنه شاعر حاضر البديهة، متهيء القريحة، يقول الشعر في كثير من المواقف ارتجالا، فهو يقول مقطوعة ويعلن أنه قالها على سبيل الفكاهة مثل قوله (82):

إن صد عني في الهوى ظـــالما ۞ دعوت بالرحمن على الظالم
دعـا عليـل القـلب قد غـــره ۞ ميـم أضـافوهـا إلى قاسـم

ويقول مخاطبا المشيب (83):

قلت للشيب لا "يربك" جفائي ۞ في اختصاري لك البرور ومقتك
أنت بالعتب يا مشيبي أولى ۞ جئتني غفـلة وفـي غيـر وقـتك

ويقول: «ومن المرتجل وقد أطل الشيب» (84):

حـل المشيب بفؤديي فألبسني ۞ ثوبا من الوجد لا يغني على الأبد
قد كنت للزوّر مرتاحا إذا طرقوا ۞ إلا المـشيب فـفـت زوره كبـــدي
دعوه يمضي كمـــا شاءت إرادته ۞ سأعمل الجهد في إرغـامه بيدي

ويقول: "وقد ارتجلنا من باب المداعبة"(85):

لا يغرنك من طباعي سكون ۞ ومحيا يجول فيها العـــفاف
أنا كالصـــل إن لمست فلين ۞ وهـو سم متى أهيج زعـــاف

وقال: بعد أداء صلاة الاستسقاء (86):

يا رحـمة الله ويـــا عـــفـوه ۞ شـكى لك الإسلام من ضعفه
القحـط قد حـــل بأرجـــائنا ۞ وحـلمك المـرجو فـي صرفـه
فلا تـــؤاخذنا بأفـعـــالـنا ۞ يا مـــن توكلـنا عـلى لـطفه

---

(82)الديوان ص 81.
(83)الديوان ص 38.
(84)الديوان ص 38.
(85)الديوان ص 145.
(86)الديوان ص 145.

قد مسنا الضر ولا حيلة ✿ إلا لزوم الباب من خوفه
شفيعنا التوحيد يا من غدا ✿ المنح والإعطاء في كفه

2-أنه شاعر ملك، صاحب ذوق وصاحب موهبة، جعلته يتفنن في الشعر فيوظفه في مناسبات مختلفة، فتارة يقول شعرا كي ينقش على القباب، وذلك نحو (87):

ماذا أنص وما أقول ✿ والحسن قد بهر العقول
شرفا لمن يبغي العلا ✿ عزا على ركب الخيول
يا يوسفي المنتمي ✿ يا سبط أنصار الرسول
لا زلت مولى منعما ✿ شرف المعاهد والطلول

أو أن ينقش على السيف وذلك نحو (88):

يوسف قلدني ربه أيدني ✿ فأنا في كفه حتف من عاندني

وهذه الأغراض يناسبها مقطوعات شعرية تتسم بالبساطة في وزنها وتركيبها ولغتها.

التأثر الفني:

من الواضح في بناءقصيدة هذا الشاعر الملك تأثره بغيره من الشعراء، فهو ذو موهبة شعرية صقلها محفوظ شعري متنوع، يمتد من العصر الجاهلي حتى عصر الملك الشاعر، ويبدو لنا شعره نسيجا، تشتبك فيه خيوط مختلفة مشرقية ومغربية، فهو ينسج كثيرا على طريقة غيره، ومن أبرز مما يلاحظ في شعره:

أ- المعارضة: عارض يوسف الثالث عددا من الشعراء، فقال: وأنشدنا على طريقة النابغة (89):

خطرت فأزرت بالغصون الميّد ورنت فأوردت الغصون الميُّد

وضمن بيتها المشهور:

---

(87)الديوان ص 104.

(88)الديوان ص 130.

(89)الديوان ص 170 - 171.

بمخضب رخص كأن بنانه ✿✿ عنم يكاد من اللطافة يعقد

وله دالية أخرى استوحى قافيتها من هذا البيت وضمنه (90):

ما أبعد الشيء ترجوه فتحرمه ✿✿ قد كنت أحسب أن الصبر طوع يدي

وفي ديوانه خمريّة ديريّة قال إنه نظمها «على وجه المجاز على طريقة أبي نواس ونستغفرالله» والتي مطلعها (91):

أهلا بيوم الموسم المشهود ✿✿ إذ جدد القسيس فيه عهودي

فض الختام عن الدنان مفتحا ✿✿ باب التنزه في الحسان الغيد

وعارض قافية للمتنبي مضمنا عجز مطلعها (92):

عين مسهدة وقلب يخفق ✿✿ هذي تصوب وذاك دأبا يحرق

كما عارض دالية له مضمنا في الختام صدر مطلعها:

واستعدنا حمد الإله وقلنا ✿✿ " حسم الصلح ما اشتهته الأعادي"

ولا تقتصر معارضاته على الشعر المشرقي، فقد عارض أيضا رائية للرصافي البلنسي وموضوعها في الغزل، ومطلعها (93):

وذي نخوة حاولت تقبيل خده وقد رجحت أعطافه بالهوى سكرا

وعارض أبياتا للشاعرة حمدة الوادي آشية: وقال فيها (94):

إلى الله أشكو ما بقلبي من الأسى ✿ وماقد طوت من شرح حالي أسراري

تفرق أحباب وجمع حواسد ✿ وكثرة أعداء وقلة أنصار

ومما يلاحظ أن قصائده التي عارض فيها الشعراء، تتفق في معظمها في موضوعاتها ،إضافة إلى قوافيها مع القصائد المعارضة، وهذا يتفق مع الرأي النقدي الذي يرى أن المعارضةليست من باب التقليد وإنما هي صميمها تلاقي روحين وائتلاف قلبين أو اصطدام نفسيتين (95):

وقد أكثر يوسف الثالث من ترديد اسم الشريف الرضي في ديوانه فهو

---

(90)الديوان ص 39.

(91)الديوان ص 54.

(92)الديوان ص 150.

(93)الديوان ص 72.

(94)الديوان ص 62.

(95)الموازنة بين الشعراء ،زكي مبارك ،ص 392.

ينظم على طريقته في قصيدته التي مطلعها (96):

قل لمن عدد أملاك الزمن ✿✿ مجمل الوصف لنا في كل فن

وقال على طريقته قصيدته التي ذكر فيها (97)

لقد علمت نصر بأني كفيلها ✿ إذا هاجت الهيجاء واحمرت الأرض

أدافع عنهم بالصوارم والقنا ✿ وأحمي حماها أن ينال لها عرض

وإني يوم الأمن أسدي مكارما ✿ تضيق بها الأقطار والطول والعرض

وقال على طريقة الشريف الرضي في الحجازيات (98):

يقولون هذا العيد قلت وبالحرى تعود ليال بالمصلى عهدناها

ليال هدت منا القلوب وضلت بنا الأحتلام حتى نشدناها

وليس غريبا أن تكون صورة الشريف الرضي وطريقته الفنية حية في خيال يوسف الثالث، إذ أن نقاط الالتقاء بينهما كثيرة فكلاهما تجرع كأس المرارة من يد الزمان حتى الثمالة، لا سيما أن والدالشريف الرضي قد نحي عن الحكم وزج في السجن مدة لا تقل عن عشر سنوات، ومما زاد أسى الشريف الرضي تلك القطيعة التي كانت بينه وبين أخيه، وقد خاطبه شعرا في قصيدته الضادية المشهورة التي مطلعها (99):

رضيت من الأحباب دون الذي يرضي ✿✿ ودانيت من تقضي الديون ولا يقضي

والدارس للقصيدتين، قصيدة يوسف الثالث في عتاب أخيه وقصيدة الشريف الرضي هذه يجد أن يوسف الثالث سار على نهج الشريف الرضي من حيث المراوحة بين اللين كتذكير أخيه بصلة القرابة، إلى العنف وعدم استبعاد القطعية الأبدية بينهما.

---

(96) الديوان ص 131.

(97) الديوان ص 134.

(98) الديوان ص 158

(99) ديوان الشريف الرضي، ج1، ص 68 - 69.

وانظر: (أ) الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي، عزيز السيد جاسم، بيروت، دار الأندلس، 1986 ص 115.(ب) الأدب العربي في العصر العباسي، ناظم رشيد، منشورات جامعة الموصل، 1989 م ص 277.

التضمين:

ومن الملاحظ المهمة في ديوان يوسف الثالث التضمين من ذلك أنه ضمن قول زهير (100):

"وهل ينبت الخطى إلا وشيجه"

وضمن في قطعة له قول ابن وهبون (101)

"وأقول لا شلت يمين القاتل"

وضمن في مقطوعة أخرى قول عمرو بن معدي كرب (102)

"عذ يرك من خليلك من مراد"

وضمن في قصيدة قول العرجي (103)

"أضاعوني وأي فتى أضاعوا"

وضمن في قصيدة قول ابن دراج (104)

"وفي المهد مبغوم النداء كأنه"

وضمن في قصيدة قول حمدةالوادي أشية (105)

"وقلت حماتي عند ذاك وأنصاري"

ولا شك أن التضمين يؤدي إلى اكساب الشاعرقصيدته معنى ذا قاعدة عريضة في ذهن السامع، وقيمة استخدامه، لا تقل أهمية عن استخدام الرمز كتقنية من التقنيات المستعملةفي الشعر الحديث، وذلك لأنه كفيل بإثارة مخزون القاريء في المعرفة إضافة إلى أنه يشير إلى قدرة شعرية خلاقة يستطيع الشاعر بواسطتها أن يعبر عما يجول في نفسه من خلال توظيف ركام المعلومات المختزن في نفسه.

---

(100)الديوان ص 93.

(101)الديوان ص 99.

(102)الديوان ص 110.

(103)الديوان ص 109.

(104)الديوان ص 16.

(105)الديوان ص 62.

مصادر الصورة:

إن المتأمل بعناصر الصورة في شعر يوسف الثالث يجد أنه يراوح بين الصورة التراثية، والصورة المنتزعة من بيئة الأندلس في شعره، في أغراضه الشعرية المختلفة، فهو يشبهأسنان المحبوبة بعقد اللؤلؤ، وذلك بقوله (106):

وإذا هي ابتسمت يروقك مبسم ●● يزري بعقد اللؤلؤ المنضود

ويرى أن اختفاء زوجه وقد ووريت القبر كأنه أسرع من سير الخيل العراب، يقول:

ولكن سارت الأظعان سي ●● حثيثا دونه الخيل العراب

وشبه ولده بالغصن اليانع الذي قصفه الموت:

كنت غصنا يروقني ●● فتثنى ثم انقصف

وشبه المحبوبة بالشمس كقوله:

فما راعني إلا دموع تبادرت ●● لشمس توارت حين راق بزوغها

وشبهها أيضا بالقمر، وشبه أنظارها بالشرك الذي وقع الشاعر في شباكه يقول:

خليلي إن القلب يوم مصيرنا ●● لفى شرك الألحاظ كان وقوعه

وصدود المحبوبة كالسيف القاتل، يقول:

أصبحت مقتولا بسيف صدوده ●● وأقول لا شلت يمين القاتل

وصور المحبوبة في حالة صدودها بالغزال:

إن تجودوا أنتم لذلك أهل ●● أو تصدوا فشيمة للغزال

ويصف بسالته وشجاعته في المعركة على الخيل العتاق الأصيلة التي طالما خاضت غمار المعارك فأردت الكماة المحاربين ساجدين يقول:

يرد صدور النائبات بصدره ●● ويقضي بما شاء الجلاد ويحلم

نضته على البيضاء عزمة يوسف ●● فعادت ورود الصامتات بها دم

وقال:

فإن لنا الخيل العتاق إذا انبرت ● تخال بأيدي الريح منها الشكائم

تحط بهامات الكماة محاربا ● لها ساجد منهم وأخر قائم

---

(106)الديوان ص 36.

ونلاحظ أن الصورة التراثية بوجه عام صورة جزئية محدودة، لا تشكل لوحة فنية متكاملة، وليس غريباأن تأتي الصورة عنده هكذا ،وذلك لأنه يصدر في صوره التراثية عن محاولة تمثل لشعر القدماء .ولا غرابة في أن يكون لطبيعة الأندلس الخلابة حضور واضح أيضافي ديوان الشاعر فالطبيعة ينبوع الحدث الفني، يتفجر داخل ذات الفنان لا خارجها، وهو لا يجود بقطرة من مائه إلا إذا استوعبته نفس الفنان، فالفنان يعب من معطيات الطبيعة وصورها كما يلقاها معكوسة في عدسة الذات الإنسانية ،ذات الفنان التي تخصبها ما يلائمه من التعبير الجميل، حين ينبري لعمله الإبداعي. وقد أبدع يوسف الثالث في انتقائه ومن ذلك ما قاله في قصيدة غزلية، صور نفسه ينتظر فتاته في روضة غناء، ذات غصون منتشية، ونسيم عليل معطر بالوسن، تهدي الأنوف روائح الأحباب، ممازجا بين صفات هذه الروضة وصفات محبوبته يقول :

والغصن ريان المعاطف منتش ❁ يومي (إلي) بزهرة ويحابي
والروض مبتسم الأسرة ضاحك ❁ كزمان وصل بعد طول عتاب
تحكي بطائحه نمارق سندس ❁ وتلاعه قد ألحقت بملاب
مرت تصافحنا أنامل سوسن ❁ ورنت تغازلنا مع الإعجاب
والريح تسحب ذيل كل خميلة ❁ تهدي الأنوف روائح الأحباب
والآس صدع للحبيب معطفا ❁ والخد ورد مشرقا كشهاب

ويقول في قصيدة أخرى:

والطير تصدح والنسيم قد انبرى والنهر يصفق من غناء رباب

ولا يخفي تلوين الشاعر لصوره بعدد من المحسنات البديعية، كالجناس وذلك في نحو قوله(في الغزل):

إلا يا مكنسا بظباء أنس حويت من المحاسن كل جنس

والجناس والطباق في مثل قوله:

أيبعد شخصها والفكر يدني وتبرأ ساحتي والوجد يضني

ونلاحظ كذلك التقسيم الداخلي الذي أكسب شعره موسيقى داخلية وذلك

كما في قوله السابق وقوله (107):

يوسفيا ناصريا ✿ طود عزم رسخا
تاركا حزب العدا ✿ آجلا منتسخا
للاقاة الردى ✿ مربعا مدوخا
ولمن يبغي الندى ✿ والوداد والأخا
ومظاهر الهدى ✿ وموالاة السخا

الموسيقى:

هنالك ملحظ مهم يتعلق بالموسيقى في ديوان يوسف الثالث، يتعلق بقدرته على نظم الشعر على بحور مختلفة، وذلك في الغرض الواحد ولأغراض المتعددة، ولم أجد أن هناك صلة مطردة بين استعمال بحر معين لغرض معين، فقد قال على البحر الطويل قصيدة في رثاء زوجه جاء فيها (108):

فأيأسني أن ضلت العين قصدها على ثقة أن لا ترى النجم هاديا

وقال قصيدة في رثاء ولده على مجزوء الخفيف (فاعلاتن فاعلاتن) جاء فيه(109):

ضحكت سن الردى ✿ عنه في يوم عبوس

وهذا يتفق مع الآراء النقدية التي ترى أن لا علاقة بين بحور الشعر وبين الأغراض الشعرية المختلفة.

أما فيما يتعلق بالقوافي، فنلاحظ أن الشاعر قد نظم عليها جميعا، وقد اختار ترتيب ديوانه ترتيبا يشير إلى قدرته على النظم على جميع القوافي حتى تلك القوافي الصعبة أو قليلة الشيوع وذلك كقافية الضاد والطاء والهاء (110).

---

(107) الديوان ص9.

(108)الديوان ص 165.

(109)انظر مثلا: الديوان ص 155.

(110)موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، 1965; ص 248.

وانظر: العروض الواضح، ممدوح حقي، دار اليقظة، بيروت ،ص :112

إلا أن القافية الأكثر شيوعا في ديوانه هي قافية الراء، واللام ثم الميم والنون وهذا أيضا يتفق مع الدراسات النقدية التي أثبتت أن هذه القوافي تشكل حضورا أو شيوعا واضحا في الشعر العربي بوجه عام! !

❀ ❀ ❀